دراسة رواية "ابنة المملوك" التحليلية

محمّد تنوير*

يعد محمّد فريد أبو حديد أحد رواد كتاب الرواية التاريخية في مصـــر والعالم العربي بحيث أنه ســاهم بشـكل ملحوظ في تطور هذا الفن الروائي شـكلا ومضـمونا، فقـد عمـل على إعـادة إحيـاء التـاريخ والتراث العربي إذ أنتج مجموعـة من الروايـات التاريخية تدور معظمها حول الحياة العربية القديمة في العصـــر الجاهلي مثل رواية (زنوبيا)، (الملك الضـليل) ١٩٥٦، و(المهلهل سـيد ربيعة) ١٩٤٤، و(أبو الفوارس عنترة) ١٩٤٧، و(الوعاء المرمري) ١٩٥٢ وغيرها. كان أبو حديد يرى أنّ كل رواية تاريخية تعبر عن النفس البشـرية الخالدة التي اسـتمرت في الماضـي ولا تزال مسـتمرة في كل وقت، فقد تختلف الوجوه والملابس والعقائد والعادات ولكن النفس البشـرية لا تزال واحدة في كل زمان ومكان، لذا نراه في رواياته محافظا على الحقائق والوقائع الثابتة تاريخيا، كما يجتهد في تفسـيرها وتأويلها بما يتفق مع منطقية الظروف والشـخصـيات، فيزاوج بين الصـدق التاريخي والصـدق الفني مصـورا الحياة العربية بكل أبعادها وتفاصـيلها، من عادات وتقاليد، سـلم وحرب، إقامة وظعن، تصـويرا يكشـف عن انتمائه القومي واعتزازه العربي في شـــكل فني جميل مشـــوق، ويوّضـح فيها عن طريق أبطاله المبادئ الســـامية، والقيم النبيلة والأخلاق الرفيعة لتكون نموذجا رائعا يقتدى به الناس في حيـاتهم. ولعلنـا نراه يبـدأ روايـاتـه بعرض الأزمـة أو المشـــكلـة المتعلقـة بـالأحـداث أو الشـخصـيات في الفصـول الأولى، وفي الفصـول التالية يأخذ الحدث في التصـاعد من خلال عنصري الزمان والمكان. ومن خلال التوظيف الفني للشـخصية التي يصـورها في الحوار، ومن خلال الصـراع النفسي الداخلي، والصـراع مع بقية الشـخصـيات، فتتبين الظروف البيئية المحيطة بها حتى تصـل الرواية إلى ذروتها العالية وتشـرف على نهايتها

* باحث الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة كشمير، سرينغر

القيمة والتي تتمثل غالبا بموت الشخصية الرئيسية لتشبه بذلك بطل المأساة الإفريقية والإنجليزية، وذلك لان الكاتب تأثر بمسرحية شيكسبير وفنه تأثيرا قويا.

ابنة المملوك[1] ١٩٢٦م:

أما رواية ابنة المملوك (١٩٢٦م) فقد اعتبرت خطوة رائعة نحو الرواية التاريخية بحيث أن حبكة الرواية وطريقة بنائها ورسم شخوصها والنفوذ إلى مكامنها وخباياها النفسية كانت على الغاية من الكمال الفني والجمال الطبعي، وهذه الرواية تعرض فترة من فترات تاريخ مصر، وهي فترة اغتصاب محمّد علي للسلطة، وما لابس ذلك من صراع ضد سيطرة الأتراك، ومقاومة الأطماع الإنجليزية، وتوهين لقوة المماليك، واستغلال لنبل المصريين.

وقد جعل المؤلف لهذه الرواية محوريين أساسيين حاول أن يربط بينهما، الأوّل محور تاريخي يدور حول محمّد علي وصراعه وتحايله وغدره، والثاني محور عاطفي يدور حول شاب عربي يسمى "عليا"[2].

وكان "أبو علي" من الزّعماء الكبار في الحجاز، وفي أحداث سياسية مات "أبو علي" وتشتتت أسرته إذ ركب هذا الفتي البحر متجها إلى الشواطئ المصريّة تخلّصا من هذه الحوادث بعد أن عبر البحر الأحمر ركب على سفينة في النيل اندفعت به إلى شواطئ بني سويف، وفي ليلة عاصفة أوشك أن يغرق علي بسفينته لو لا أن رأته حورية ابنتك "عمر بك" وحورية تطل من قصرها على النيل، فطلبت حورية إلى بعض الأعوان لإنقاذ علي ثمّ جاءوا به إلى القصر ومن هذا اليوم أصبح مدينا بحياته لهذا البيت، فصار علي تابعا "لعمر بك" الذي أحبّه أشدّ الحب واعتبره بمثابة ابنه وخاصة حين عرف والده وتاريخه في النضال، وأن عمر بك صديق لسيد عمر مكرّم "الزعيم المصري الكبير". ومن هنا وقعت المودّة بين على وحورية ومد علي يده بحبّ حورية

---

[1] هذه الرواية لمحمد فريد أبو حديد طهرت في سنة ١٩٢٦م.

[2] الأدب القصصي والمسرحي في مصر، د. أحمد هيكل ص ٢٢٢

ومدها أيضًا له.

وفي أثناء الصراع بين الوالي التركي خورشيد، وبين المماليك وقع "عمر بك" أسيرا وحبس في القلعة وحاول علي محاولة جادّة لتخليصه بحيث قام بمغامرة كبيرة حتى انتهت هذه المغامرة باتفاق أهم زعماء المماليك مع محمّد علي وعمر بك، وبهذا الاتفاق تقوى جانب محمّد علي حتى رضي خورشيد "الوالي التركي" على التسليم والنزول لعمر بك من القلعة. وفي لقاء بين هذا الزعيم وبين محمّد علي دار الحديث حول علي وبطولته على أن يظلّ على ولاءه "لعمر بك". وكان يتردّد علي في بني سويف ليري "حورية" أكثر من مرّة في يوم كما تنتظر حورية له واشتدّ الحب بينهما حتى يتحقق حلم علي في الزواج بحيث اتفق أهل حورية وعلي على زواجهما. فهذا المحور العاطفي الذي يدور حوله هذه الرواية.

فالرواية تصور التفاصيل التاريخية والاجتماعية لهذه الفترة بدرجة مملة، وأما قصة الحب فيها فهي ساذجة لا علاقة لها بالتاريخ، بل إنما هي مقحمة للإثارة والتشويق، والحب فيها مثالى فعلي كما يتضح لنا من هذه العبارة "نال كل أمانيه منذ أن رأى حورية وأشرقت عليه ابتسامتها ولاح له رضاها عنه، وخيل إليه أنه لم تبق له بعد ذلك أمنية أخرى في الحياة، وأنه لا مطمح له في مادتها، بل كل ما قصده هو ذلك الروح الذى جذبه برغمه"،[1]

والملاحظ أن المؤلف لا يكتفى في هذه الرواية باتخاذ القصة الغرامية وسيلة لإساغة أحداث التاريخ كما أنه لا يكتفى بتعليم تاريخ تلك الفترة من خلال قالب روائي بل إنما يضيف إلى تعبير عن شعور قومي، وقصد إلى هدف وطني، فبهذا الاعتبار هذه الرواية في الحقيقة تعبير صادق عن دور المصريين في مقاومة الحكم التركي وإسقاط خورشيد (أحد ممثل حكم التركي) وفيها بيان لزعماء الشعب وإخلاصهم وعملهم الجاد في تخليص البلاد من الأتراك والمماليك والإنجليز، مستعينين في ذلك بمحمّد علي،

[1] محمد فريد أبو حديد : ابنة المملوك ص ٣٣٤

ويجدر بنا الملاحظة أن المؤلف أكثر من مرة صـور "محمّد علي" بصـورته المليئة بالمكر والأنانية والدّموية، فجعل المؤلف يأتي بعض الأوصاف عن طريق المواقف والتصرفات، والبعض الآخر عن طريق الحوار يدور بين الشـخصـيات ومن ذلك قوله على لسـان إبراهيم بك أحد شيوخ المماليك وهو يخاطب البرديسي (الزعيم المملوكي): "ألا فاعلم يا بني أن هذا الرجل من أكبر الثعالب التي مرّت في حياتي الطويلة".[١]

ومن ذلك أيضا قوله على لسان بعض أصدقاء البطل المشتغلين في خدمة محمّد علي: "ولكن هذا الرجل يحاور أعداءه كالثعبان الوثاب"[٢]، وفي مقابل هذا جعل المؤلف صـورة العربي ممثلا في علي (أحد البطل المصـري) صـورة الفارس الجميل، الوفي الشـجاع، المناضـل الباسـل، الوطني الفدائي، الظريف المسـرح، وكل هذا في الواقع يجعل الرواية ليست مجرد تعليم التاريخ كجرجي زيدان وإنما يجعلها خطوة رائعة نحو الرواية التاريخية القومية والوطنية التي وراءها شـعور قومي وأمامها هدف وطني. يقول د. أحمد هيكل عن هذه الرواية:

> "قد اعتبرت هذه الرواية خطوة نحو الرواية التاريخية القومية، لأنها في الواقع اهتمت بتعليم التاريخ كروايات جرجي زيدان ولكنها لم تخل في الوقت نفسـه من الإحسـاس القومي والهدف الوطني، ولو أنها خلصـت للتعبير عن هذا الإحسـاس وخدمة هذا الهدف لكانت البداية الحقيقة للرواية التاريخية القومية"[٣]

والواقع أن صفة التأكيد على الهوية الوطنية أو القومية هي الأصل الذي يشترك فيه محمّد فريد أبو حديد في هذه الرواية. بحيث مثل محمّد فريد أبو حديد نموذجا رائعا للوسـطية بين الرواية التاريخية وبين القومية الوطنية التي تتضح لنا من خلال

---

[١] الدكتور طه وادي، صورة المرأة في الرواية المعاصرة، ص ١٦٧

[٢] محمد فريد أبو حديد: ابنة المملوك، ص: ٤٦

[٣] د. أحمد هيكل: الأدب القصصي والمسرحي في مصر، ص: ٢٤٣

هذه رواية، ويؤكد الدكتور جابر عصفور قائلا:

"أن أبا حديد قد اهتم بالرواية التاريخية القومية اهتماما خالصا فكان نموذجا للوسطية التي تثير العواطف ولا تهيج البراكين ولا تتحول إلى زلزال، وإنما يمضي في يسر إلى هدفه القومي"[١].

وهذه الرواية التي تعتبر بداية الرواية التاريخية القومية باعتبارها كانت جيدة البناء كثيرة المفاجأة، محكمة الحبكة، رائعة المحل بالرغم من ذلك أن فيها بعض الخيالات البعيدة عن الواقع، والتي تخفي عن أعين النقاد بأسلوب المؤلف واستخدام اللغة الفصحى، فقد استخدم المؤلف في سرد الرواية ووصفها وحوارها لغة رائعة مليئة أحيانا بالأشعار الجاهلية والأمثال العربية، غير أن المؤلف في مواطن قليلة جدا أنطق بعض الأبطال بالعامية مثل قول السيدات للبطلة: "الغايب ملوش نايب(٥)، فبعد هذا القول مباشرة تتساءل السيدة. أليس كذلك؟" علاوة على ما سبق قد أشار الكاتب في هذه الرواية إلى عدة قضايا المرأة ودعا إلى حريتها في المجتمع العربي لأنها تعاني الأزمات والصعوبات العصرية التي كانت سائدة في مصر في تلك الفترة.

ويجدر بنا الإشارة أن هذه الرواية في بعض المقامات تبعد عن المجال الفني وتتصل بالواقع التاريخي أكثر من مرّة مثلا أن المؤلف يسمى المماليك باسم المصريين فالذي لا شك فيه أن هؤلاء المماليك كانوا أجانب عن مصر، وكانوا برغم تمصرهم يصرّون على اعتبار أنفسهم طبقة أعلى من المصريين، وكان المصريّون هم أبناء البلد الذين كان على زعامتهم في تلك الفترة "السيد عمر مكرّم". وبهذه كله تعتبر هذه الرّواية خطوة رائعة نحو الاتجاه القومي من الرّوايات التاريخية في الأدب العربي.

---

[١] د. عبد المحسن طه بدر: تطور الرواية العربية الحديثة في مصر: ص ٣٤٣ والى ما بعدها